بين الفكر والوجدان

هذه مجموعة رسائل بعثها السعيد إلى بعض أصدقائه أورد الأستاذ أبو بكر القادري احداها في فصل تطرق فيه إلى « الصداقة لدى السعيد » في كتابه عن « سعيد حجي » (ج 1 ص 135 - 136) وأتى بنتف من رسائل أخرى ضمن مقدمته للجزء الثاني من الكتاب المذكور (ص 10 وتابعتها) .

يقول سعيد في الرسالة الأولى :

الحمد لله

صديقي العزيز،

بالأمس فقط تعارفنا واليوم أريد أن أخطط لك بعض إحساسات خالجتني منذ أول لحظة ارتبطت فيها روحانا، وسأكون معك يا صديقي كريما، فلا أخفي عليك ما يخفى عادة في الوهلة الأولى للتعارف بين الأصدقاء، فقد وجدت فيك شخصا يتمم شعوري بالحياة وإدراكي لما فيها من مقاييس وصور؛ لم أكن من المؤمنين أن حب الصداقة ينقش على سويداء القلب في أول نظرة أو محادثة حتى عشية الأمس، حتى رأيتك فحادثتك فارتسمت صورتك في ذاكرتي وتعاهدنا أن نكون روحا في جسمين فلنسر فأمامنا السهل والجبال، وما الحياة إلا السهل والجبل.

كان حديثنا عشية الأمس وعشية اليوم حديث من يصعد للسماء وهو لا يأبه بالسماء ويريد غير السماء، فطوينا طرقا واجتزنا مسافات في ميدان التقارب بيننا في أسمى معانيه، وقد تلمست نبضاتك فإذا أنت ذلك الشخص المجهول في عالم ، الخمول كل ما فيه، وإذا أنت تعمق إلى حد غير محدود وتغور في طبقات من المعاني القوية فلا تجد من يمد لك يد المساعدة في جهادك إلا رفيقا واحدا هو نفسك هو الشعور الفياض الذي أراه

يتدفق منك ولا يجد فيك مخرجا إذ ينحبس في أعماق صدرك، فإذا بك حائر، وإذا بك قانط تغمرك الحياة، وأنت في أعماقها بما فيها من متضاربات ومتناقضات، فتريد أن تتساءل عن كل جزئية وتبحث كل جزئية، فيخيل إلى أن دورانا يلمس عقلك في هذا العالم اللجب وأنت تحاول ما تحاول دورانا هو جسر يمر عليه الإنسان ذو العقلية النيرة، ليصل إلى مستقر هو جوف الأرض، ولكنه لا يتناول الأرض وما حوت وكيف حوت ما حوت.

والآن وأنا أراك مضطرب البال حائر الاتجاه شارد الذهن عميق المحاولات لا أرجو منك إلا رجاء واحدا هو أن تتخذني صديقا في ملماتك النفسية، فأنا أيضا تعجبني تلك الدورات التي يقوم بها الفكر دون أن يهتدى إلى شيء يسمى في العالم الإنساني بالحقيقة فنتعاون يا صديقي الجديد العميق في أغوار نفسي على أن نجتاز ما نجتاز من هذه العقبات في ثقة واطمئنان.

فهذا الجو الذي نعيش فيه جو مسموم بنار الجهل والانهماك فيما لا نريد، وإذا أردناه يوما فإن ضميرنا سيوالي ضرباته الحديدية على نفوسنا الحساسة، فخير لنا نحن الذين نفكر ونتطاول بتفكيرنا إلى مجهول وراء مجهول أن نستعد لنريح أنفسنا وإلا خسرناها في ميدان متلاطم الأمواج عسير السبل منحط الإدراك، فالفرار فالفرار حيث يلجأ كل منا إلى الآخر ليقوى عزمه ويشد أزره فيسيران أو يسيرون إلى ملتقى يقف عنده كل من يسعى في الحياة بتعمق ويزيل عنه كل اعتباراتها الوهمية وبواعثها الواهية وصورها المتشابهة ليدخل إلى مكنونها ونقطة ارتكازها. وأنا الضمين لك يا صديقي أننا إذ ذاك سوف لا نشعر بغربة ولا حيرة مما تشعر به الآن ومما شعرت به في وقت من أوقات حياتي الفكرية.

وأخيرا إني لا أريد أن أطيل رسالتي الأولى إليك إطالة قد لا يكون لها من معنى، ولكني أهمس في أذنك أني لعقلك وأن عقلك لي، وأختم رسالتي راجيا أن تتخذ من المراسلة سجلا لما في نفوسنا من ثورات عنيفة، وإليك من أخيك تحية القلب للقلب.

سلا في 25 يوليوز سنة 1934 أخوكم: سعيد حجي

ومن رسالة بعثها إلى أحد أصدقائه من لندن في شهر فبراير سنة 1936 يقول فيها:

منذ وصلت إلى لندن، أو منذ غادرت المغرب، لم تصلني إلا رسالتك الوحيدة، ومنذ وصلت وأنا أغتنم كل فرصة لأقرأها من جديد، وأتلذذ بكلماتها الموسيقية العذبة، وأجسم فيها شخصيتك المرحة، فتراني أجالسها كما لو أني أجالسك، ولي مزيد الشوق أن تكون رسالة أخرى منك في الطريق لتخفف عني أثار الغربة وآلام الانفراد، وأيضا لا تطمع أن أصف لك مشاهداتي في لندن، ولكني أؤكد لك أني أنظر إليها بعيني لا بقلبي، وأن قلبي ينظر بعيدا حيث ما ذكرت لك في رسالة أرسلتها لك ...

ومن أخرى، هذه الفقرات المعبرة عن تحرك عاطفته وتغلب إنسانيته عليه:

قضيت يوم الجمعة الماضي بمدينة برمنگهام للتفرج على قسم المعرض البريطاني الخاص بالآلات، وعندما رجعت بالمساء، وجدت عدة مكاتيب استعرضتها فوجدت رسالة منك، ففتحتها بلهفة وشوق عظيمين، ولكني ما كدت أقرأ منها بعض سطور حتى اصطدمت وكدت أقع على الأرض، لا أدري ما حولي، ولا أستطيع أن أجيب من يتكلم معي إلا بمشقة، ومن دون أن أعرف أصحاب الرسائل الأخرى، ولا أن أفكر في العشاء، خرجت في ليلة اشتد بردها، مضطرب البال، لا أدري أين تسير بي قدماى، ولا أرى ما أشاهد، ولا أعي ما أسمع، ولكن ما أحلى رسالتك! وأعذب كلماتك مهما كانت قاسية لم أستطع أن أتحملها، بل جعلتني شريدا في « لندن » أقطع المسافات العديدة دون أن أشعر بتعب ...

ومما كتبه في رسالة أخرى هذه السطور الدالة على تفتح قلبه وتدفق عواطفه:

أتدري أن رسالتك أصبحت لدى قرآنا أتلوه في أعماق الليل، حيث السكون يرفرف،

وحيث يموج البشر في سكرات النوم، وأتلوه في الصباح الباكر، حيث يسرع العامل النشيط إلى عمله، والتلميذ إلى مدرسته، والأستاذ إلى قسمه، والتاجر إلى تجارته، وأتلوه إذا أخذت القطار أو الحافلة، أو سرت على قدمي في وسط هذا البحر الزاخر، حتى أكاد أن أصطدم وأنا لا أشعر أن « فاه » الموت سيختطفني ولست أدري هل النعيم الذي سأدخله سيكون موازيا لهذا النعيم الذي دخلته منذ فتحت رسالتك بالأمس ليلا، لا أجيبك عن رسالتك، بل سأقرأها لا في سفرتي هذه فحسب، بل حتى في إقامتي بجانبك، ، وكلما قرأتها ستجيبك نفسي، وستخاطبك روحي، أنك أنا، وأني أنت. فإذا كنت منذ يومين قنوطا من الحياة، لا أدري ما أكتب، ولا كيف أعبر عن هذه الحالة النفسية التي لازمتني منذ عرفت أن رسالتي لم تصل إليك، فإني عاجز أن أشرح لك ما يموج بنفسي من الخواطر، ولا أن أصف لك هذا الجو الذي دخلته منذ حين، إذن، فالخلاصة أنني عاجز في الحالتين. وهكذا ترى أن نظرية « انشتين » قد تتحقق أيضا في دائرة نفسية محضة. فالحالتان خطان متوازيان، ولكنهما تلاقيا في نقطة من نقط النهاية التي نعبر عنها نحن البسطاء باللانهاية ...